

لم تكتب عن المسألة الوطنية .

اننا نتحدث عن السمة العامة للجو الثقافي فسي فلسطين ، حيث لعب المثقفون دورا كان أكبر حجما من الدور الذي تلعبه هذه الفئة ، خصوصا حين لا تكون حزبية ، في امكنة اخرى تعيش الشروط الكلاسيكية لمعركة التحرر الوطني . كانت خصوصية الوضع بالنسبة للمثقف العربي مريدة : ففي المدينة كان أبناء الاغنياء يرون - بعد عودتهم من الجامعات او بعد انتهائهم علومهم - كيف تقف الطبقة التي ينتمون اليها عاجزة كليا عن قيادة المعركة التي انتدبت نفسها لها ، مدركين في كل الاحوال تخلفها وكساحها الثقافي امام رياح العصر ، ولكنهم فسي الوقت ذاته كانوا يمانون من عجزهم عن ايجاد مكان لانفسهم في حركة المجتمع المتقدم نحو تثبيت صفته الصناعية ، اذ ان القوة التي كانت تتحكم بهذا التحول كانت قوة ، في جوهرها وفي مظهرها ، اجنبية وغريبة ، ولذلك فان البورجوازية الوحيدة الموجودة بقوة لم تكن تتحداهم قوميا نحسب ، بل ايضا كانت تمتنق ثقافتها لا تمت بصلة الى ثقافتهم ولا الى مطامحهم الثقافية .

وفي الريف كان الفلاح الفلسطيني الذي رزح قرونا طويلة تحت اثقال القهر الطبقي والقومي ، وجرى تحويله عبر ذلك الى القدرية المفرطة باسم الولاء الديني ، قد انشأ لنفسه عالما « ثقافيا » مسورا بالتقاليد التي فرضتها الطبقة السائدة ، والتي عبرت عن نفسها بالامثال الشعبية ، هذه الامثلة التي كان لها سطوة القانون ، وهي سطوة معروفة في كل مكان وخصوصا في الارياف الخاضعة لعلاقات الانتاج الاقطاعية « فهي ليست شكلا من اشكال الفونكتور ... بل هو عمل كلامي يؤدي الى اقوى انواع التأثير على مجرى الامور وعلى السلوك الانساني » (٥٢).

ان الفقر ، والانسحاق ، وتعاقب ترون مديدة من القهر القومي والطبقي ، قد ادت مجتمعة الى انشاء « مؤسسة كاملة » للاستسلام والقدرية والخنوع عكست نفسها بالامثلة الشعبية السائدة (٥٣). وكان على المثقفين الفلسطينيين ، وخصوصا على الشعراء الشعبيين في الريف ، مهمات عظيمة لرحضة تلك الثقافة الخاملة ، دون ان يكونوا هم انفسهم قد تخلصوا جذريا من تأثيراتها . والصحيح ان قطاعا من المثقفين الفلسطينيين قد شرعوا يفعلون ذلك منذ وقت مبكر

في تاريخ النضال الفلسطيني ، وقد لعبوا دورا بارزا في بلورة وعي متقدم : ان العلاقة التي نشأت بين الادب الشعبي الفلسطيني ، وكذلك الادب الفصيح في المدن ، وبين حركة النضال الفلسطينية لم تكن علاقة وصفية او تسجيلية ، ولكنها كانت علاقة جدلية من طراز عميق .

ان الشاعر اللبثاني الاصل ، وديع البستاني ، الذي كان قد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٠٧ ، وهاجر الى فلسطين واستقر فيها ، لعب دورا رائدا في عملية التوعية هذه : فقد حذر من وعد بلغور في نفس الشهر الذي صدر فيه الوعد عام ١٩١٧ بوضوح يبدو لنا الان وكأنه كان نظرا في مرآة . ومن المفيد تتبع حقبة من الزمن يمثها البستاني سزدهر في الثلاثينات، حين نضحي على ابواب الثورة المسلحة ، طليعة قوية من الشعراء والقوالين الذين الهبوا النضال المسلح وجملوه ، ايضا ، جزءا من التراث الثقافي للجماهير التي كانت ترى في « كلب الامير امرا » . ففي ٢٩ كانون الاول ١٩٢٠ وجهت حكومة الانتداب البريطاني الى رئيس تحرير مجلة الكرمل الثقافية التي كانت تصدر انذاك في حيفا رسالة رجحت فيها نشر قصيدة كان قد ادهاها شاعر العراق الشهير معروف الرصافي ، الذي كان يزور فلسطين آنذاك ، الى المندوب السامي البريطاني هربرت صوثيل ، وفيها يمجذ خطيبا يهوديا اسمه « يهودا » ويكيل مديحا لا حد له للمندوب السامي . ولكن

(٥٤) نماذج من هذه الامثال : اللي بياكل من خبز السلطان بضرب بسيفو ، ممك قرش بقسوى قرش ، البرطيل حل دكة القاضي ، الكذب ملح الرجال ، الف قلبه ولا غلبه ، بعد حشيشي ما يبيت حشيش ، بيضة اليوم ولا جاجة بكره ، حظ راسك بين الروس وقول يا قطاع الروس ، قد بساطك مد رجليك ، كلب الامير امير ، العز للرز والبرغل شقن حالو ، تاجرنا بالكفان بطلت الناس تموت ، اشد الوجع الحاضر ، اللي ما يبيجي ممك تعال معو ، بيركض ورا الرغيف والرغيف بيركض قدامو ، الدنيا مع الوافق ، الاعمار والارزاق بيد الله ، ابن العازه عكازه ، من زود الطفر شفتنا البرقة شلن ، العين ما يتعلا عن الحاجب ، انا اول من طاع واخر من عصي .